الفصل الثامن

التعليم فى البادية :

كان العرب فى الجاهلية يعجبون بلغتهم العربية ويقدرونها حق قدرها ويتأثرون كثيرا بالادب العربى · فالقصيدة الحماسية أو الخطبة النارية تقودهم للحرب وأبيات العفو والصفح تميل بهم الى الاخاء والسلم· وبعد أن ظهر الاسلام زاد اعجابهم بالعربية الفصحى فقد كان القرآن الكريم فى أرقى درجات البلاغة العربية وكان الرسول صلى الله عليه وسلم عربيا مبينا ·

وقد استمرت لغة العرب فصيحة خالية من الخطأ حتى صدر الاسلام ولكن اختلاط العرب بغيرهم قد أدى الى وجود اللحن بينهم · وكان اللحن يعد عيبا كبيرا لا يصح أن يرتكب فقد روى ان رجلا لحن فى حضرة النبى محمد فقال الرسول لاصحابه :

« ارشدوا أخاكم فقد ضل »

وبانتشار الاسلام اضطر المسلمون من العرب الى الاختلاط بالفرس والاجانب المختلفين فى اللغة فى المدينة ودمشق وبغداد والكوفة والبصرة وتزوج العرب أجنبيات ففسد اللسان العربى فى المدن والبيوت ولم يستطع الاجانب معرفة قواعد اللغة العربية كما ينبغى فظهرت لغة المولدين وبدأ الخطأ فى الكتابة والتخاطب ·

ولم يقتصر اللحن على الأعاجم بل تجاوزهم الى العرب أنفسهم· وكان العرب ينفرون ممن يلحن فى اللغة العربية · وقد قيل ان كاتبا لأبى موسى الاشعرى كتب الى سيدنا عمر بن الخطاب « من أبو موسى (١) الاشعرى » فكتب عمر الى أبى موسى أن يضرب كاتبه سوطا ·

ودخل اعرابى السوق فسمع الناس يلحنون فقال : سبحان الله : يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح · وممن وقعوا فى اللحن الوليد بن عبد الملك والحجاج بن يوسف وشبيب بن شيبة وغيرهم · وكان اللحن أكثر خطرا عندما وقع فى القرآن فغير المعنى تغييرا يؤدى بصاحبه الى الكفر لو قصد كاللحن الذى وقع فى الآية الكريمة : « هو الله الخالق البارىء المصور » فقد قرأها قارىء المصور بفتح الواو · وكالأعرابى

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٤ ·

الذى أقراه رجل سورة براءة ولحن فى تعليم الآية الكريمة : ان الله برىء من المشركين ورسوله ، فاقراها له : « ان الله برىء من المشركين ورسوله بكسر اللام • فقال الأعرابى : ان يكن الله بريئا من رسوله فأنا ابرأ منه أيضـــا •

وفى الوقت الذى انتشر فيه اللحن فى اللغة العربية فى المـدن لاختلاط العرب بالأعاجم فيها بقيت لغة العرب سليمة تماما فى البـادية والصحراء لعدم الاختلاط فيها • فاللغة الصحيحة كانت تؤخذ عن البدو بالمحاكاة والتلقين والاستماع •

وانتهز عـرب البادية فرصـة انتشار اللحن فى المدن الاسـلامية فسافروا الى المدن وأخذوا يعلمون الناس اللغة العربية الفصيحة واتخذوا التعليم مهنة لهم •

وقد اكتفى بعض الناس التعلم من البدو فى المـدن والقرى ولـكن هناك آخرين لم يكتفوا بهذا التعلم بل هجروا المدن والعواصم والمدينـة وذهبوا الى البادية وعاشوا فيها ليتعلموا لغة العرب فى منبعها الأصـيل ويتجنبوا استماع لغة المولدين •

فبالبادية كانت تقوم بواجب تعليم النشء اللغة العربية الخالصة فى القرنين الأول والثانى من الهجرة •

وكانت صحراء سورية تتخذ مدرسة للأمراء من بنى أمية لتعليمهم اللغة الفصيحة الخالية من العجمة حتى يكسبوا ذوقا يتذوقون به فنـون الشعر والأدب •

ولم يقصد الصحراء لدراسة اللغة العربية الفصحى الأمراء وحسب بل قصدها أيضا كثير من العلماء والأدباء والفقهاء ومنهم :

(١) الخليل بن أحمد (١) فقد سأله الكسائى مرة : من أين علمك هذا ؟ فأجاب : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة •

(٢) وبشار بن برد (٢) فقد قيل له مرة : ليس لأحد من شـعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه وانه ليس فى شعرك ما يشك فيه •

قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ههنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ • وان دخلت

الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم وأيفعت فأبديت الى أن أدركت فمن أين يأتيني الخطأ ؟

(٣) والكسائى (٣) خرج الى البادية وتعلم فيها وأنفد خمس عشرة قنينة من الحبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه ٠

(٤) والامام الشافعي (٤) قال فى وصف حياته الاولى : « ثم انى خرجت عن مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم: فلما رجعت الى مكة جعلت أنشد الاشعار وأذكر الآداب والاخبـار وأيام العرب » ٠

وكانت اللغة العربيـــة الفصحى وحدها هى اللغة المستعملة فى البادية وكان بها حلقات علمية وأدبية يعقدها كثير من المثقفين والأفذاذ من البدو ليرووا أجود الشعر ويقرءوا ســـيرة العـرب وتاريخ وقائعهم وحروبهم وحياة السابقين من ابطالهم ٠